عندما خلع (يوسف بزي) بدلة المليشيات ليلتحق بعالم الأدب

إعترافات مقاتل في الحرب الأهلية

فاطمة المحسن

يوسف بزي شاعر وصحافي لبناني، أصدر مجموعة من الدواوين الشعرية، ويصدر اليوم واحدا من الكتب النادرة حول حرب المليشيات التي كادت تنهي لبنان بلداً وكياناً. يتذكر في هذه اليوميات مساهمته مقاتلاً دون محاولة تخييل الوقائع أو حجب صورتها الصادمة او تزيينها عبر الفن.عنوان الكتاب (نظر الّي ياسر عرفات وابتسم / يوميات مقاتل) منشورات أشغال داخلية . بيروت.

على عجل، وفي جمل متقطعة،كتب المؤلف نصه،كمن أراد إزاحة هم ثقيل عن صدره، أو كأن إختصاره يجنبه التمعن في الفعل بما يحمله من شحنة عاطفية، فهو يقف أمام إعترافات في غاية الخطورة عن قتاله ضمن مليشيات الحرب الأهلية اللبنانية. تاريخ لايجرؤ إستعادته الكثير من المتورطين فيه،هو أقرب الى ذاكرة مزدوجة للبنان الخائف من حرب جديدة، يستعاض عن مجابهتها بالتطامن مع فكرة النسيان.

الكتاب يخلو من نية محو الخطايا أو تبريرها، فهو يحدق في عين ماضيه وينكش ناره الخبيئة، بما يشبه الأدوات التي خاض فيها تجربة التقاتل. يقول المؤلف: هو يشبه طلقات الكلاشنكوف،صلية واحدة وينتهي زناد الذخيرة.

التحق يوسف بزي بمليشيات الحزب القومي السوري وهو لم يتجاوز الرابعة عشرة،و خاض مراهقة الحرب وهو بعد لم يخرج من إهاب الطفولة، ولعل المغامرة تزداد خطورة عندما تتلبس إحساسا بالتنكر الى المكان : البيت كمأوى، والعائلة كحاضنة لدفء العواطف. ومهما كانت الأحاسيس التي يصورها بزي،في أحاديثه الاستطرادية عن العلاقات الانسانية، فأن فكرة الهروب من البيت التي تسكن الكثير من الصبية، كانت دافعا أساسيا لحروب عبثية كثيرة من تلك التي يصفها الكتاب. المتطوع او رجل المليشيا، لايعرف ماعليه إجتيازه في إمتحان تخريب مكانه، ونسف صورته القديمة، ولكنه يعي قدرته على أن يكون قويا على نفسه كي يطرد إحساسها بإحترام الحياة. يسجل الكاتب تلك اللحظات الصبيانية التي أشعل فيها وصاحبه المقاتل صمت هدنة بين الجبهات: ((مرة استدعاني حسن أبو الليل " سنشعلها" قال.هذه هي المرة الأولى التي إكتشفت فيها كيف يتم كسر الهدنة. حملنا قاذف ب٧ مع رشاشينا وصعدنا الى سطح مبنى عال يشرف على كل الجبهات.أتناوب مع حسن، يطلق هو قذيفة وأصاحبه بمشط ذخيرة. يأخذ القاذف الثاني فألقم الأول واسارع الى إطلاق الرصاص. عشر دقائق ثم نفاجأ أن كل المحاور بادرت أيضا الى ما فعلناه. ولم تمض نصف ساعة حتى باشرت مدافع الميدان بالعمل والهاونات أيضا. وعند الفجر كان القصف الكثيف العشوائي يغطي العاصمة شرقا وغربا.)).

هي الحرب في النهاية لعبة أطفال، وعلى القصص التي كتبت بمدادها الإقتراب من عالمها كي تلتقط كيمياء العنف حين تتفاعل في قلب النزق والصبيانية.

كان اسم يوسف بزي الحركي "الشيطان"وقد اطلقه عليه أحد رفاقه،وفي مفارقة الأسم مع صورة المراهق بوجهه الطفولي،تتقدم الجماعة المقاتلة لازاحة تواريخ أفرادها الشخصية. فالأسم يحقق شرط الإندماج ويمحو التنافر في الوجود العيني بين الذوات المختلفة.هو معيار لغلبة الصفة الجديدة واغتصابها الطبيعة التي تخالفها، فيوسف وهو يجتاز اليوم عتبة الثلاثين، مازال يحمل الوجه ذاته، الوجه الملائكي، او وجه المسيح الذي لم يرتكب معصية.

في كتابه مثل ديوان شعره الأخير (بلا مغفرة)، لا يقترح المؤلف إكتشاف معاني الحرب من خلال الرغبات الرومانسية، او البحث عن عبرة تكمن خلف أخلاقها، هو يقدم صورة الحرب دون رتوش،صورة تبعثر تلك التجربة التي لم يدركها وهو يخوضها تفاصيلها. تأتي اليه على هيئة ومضات، ليسجلها مثل ممسوس يهرب من ثبات ذاكرته.الكثير من الهوامش التي أخفاها في دفاتره، تترجم ذلك الغياب الواضح لمعنى أن يكون الفرد مقاتلا في حرب عبثية. يقول : لست بطلا، ولا أريد أن أموت شهيدا من أجل الحقيقة،فقد رأيت مارأى كثيرون في تلك الحرب القذرة، رأيت السرقات والتخريب والنهب والتحالفات التي لاتليق بالأناشيد التي تصطاد الصبية من أمثالي.

في نصف إستدارة الى الماضي، تومض الذاكرة لتروي ماسقط من هوامش الحرب، ومثل فيلم يختلط فيه الجنس بالحرب، تصبح ملاهي بيروت وبيوت اللذة فيها مكّملة لفعل العنف،حيث تدخل الجماعة ملهى تغني فيه فرقة غجرية، فينثر القائد رواتب المقاتلين على رأس المغنية، تسوى القضية بإستعادة المال بالقوة،على طريقة أفلام الويسترن، لن تستوي مسؤولية الكابوي سوى على عدالة غير التي قامت عليها سلطة السلاح.

أفضل ما في الكتاب، أن صاحبه يلتفت الى ماضيه دون غضب، اي انه يحاول مقاربته من زاوية فيها بعض البرود،دون عاطفة تشوش مسرى الاحداث،فهو يكتب تاريخا يخصه، تاريخ إبتعاده عن البيت او المطرح الأول، ومن زاوية تحضر فيها صورة الأم وزوجها والأخ الطفل ثم المقاتل، وتغيب صورة الأب المنتمي الى صفوف الحزب ذاته والذي مات في معركة من معاركه. لعل تفكك العائلة في تجربة بزي الشخصية، هي تفكك لصورة لبنان الموزع على الجبهات، الهارب من مكانه الأول، فقد جرت احداثيات تلك الأيام في منعطف من التاريخ كانت تتصاعد فيه رغبة الإطاحة بالتشكيلات الهشة لوطن الانتماءات التي تتصارع على جبهات الثروة والجاه والمواقع السياسية، وكانت قوانينها تسري بالسلاح الذي حملته المليشيات، ولكنها وعلى نحو ما،كانت تعيد ترتيب التواريخ الشخصية للأفراد الذين يجري صهرهم في أتونها.

التمترس على الجبهات، وممارسة القتل والقتل المضاد، لن يحدث هكذا على نحو عفوي،مع ان أفعال الحرب يحكمها قانون عبثي، بل بمقدور المعاين أن يجده مكتوبا في معادلة التناشز بين الجماعات العربية التي وجدت في لبنان أرضا مفتوحة للإستباحة، وفي تضارب الإرادات الداخلية التي تعرب عن نفسها في ولاءات تعزز تلك الاستباحة. الكتاب لايتوقف عند الأسباب والدوافع، بل هو يلتف عليها بطرح وقائعها على الارض.

بطل الكتاب، يوسف بزي المراهق المقاتل، صورة لبنان الصغير الجميل الذي نتج عن تصاهر عائلي بين الأديان والطوائف، فهو ابن مسيحية متزوجة من مسلم شيعي، وفي دورية حراسته يكتشف إن عليه أن يقود سيدة تشبه أمه قدمت من الشرقية الى مصيرها المجهول، فمليشيات اليسار التي إختلط فيها المتعصبون بالمتسامحين لاتقبل هدنة مع الشرقية : ((انهارت المرأة وهي تقود السيارة وأنا بجانبها، أرى دمعة صامتة تكرج على خدها. برأسي المطأطئ قلت لها " أمي مسيحية" .)).

الكتاب يطل على عالم من التداعيات، عالم من القتل الذي لايرحم،مثلما تومض فيه عوالم البراءة والهروب من العنف،ومع ان الشر يحاصر اصغر حلقات التواد والتراحم،غير ان الصحوات المتكررة تبقى ناظم الدوافع الأساسية لفتى صغير مثله. عندما يحصل الانشقاق في الحزب الذي ينتمي اليه بزي ، يجد نفسه في مواجهة مع جماعة، يقتل أحدهم ويهم بقتل الآخر، ولو لم يسمعه يصرح لما عرف أن بندقيته تتوجه الى صدر أخيه : ((كان يصرخ برفاقه "جورج قُتل" ، أعرفه من صوته،أخي حسين هو الذي في مواجهتي. أنهار، وأرمي سلاحي على رفاقي وأتقدم من شارع آخر داخلا الى المنفذية . أطلب أخي، فيأتي وآخذه معي الى المنزل.)).

تتأرجح اللحظات في الكتاب، بين الغيبوبة والصحو، فالمقاتل الذي يسجل يومياته، هو الطفل الذي يحتاج الى إختبار رجولته في أكثر من موقع، وهو المرتجف من رعب الموت والهارب منه الى موت آخر. هو المتورط بقذارة الأماكن ووحشيتها، والتواق الى محو صورة الإطمئنان عن تلك التي يحل فيها. الضيف العابر على الحرب، طفلها المغوي وشيطان لعبتها وضحيتها.

يكتشف يوسف بزي الأدب في لحظة استراحة من الحرب، ويملك من خلاله القدرة على مراجعة التجربة، ولكنه قبل هذا، وقبل أن تنتهي الحرب، كان قد وصل الى محطته الاخيرة، فمن خلال تلك الفجوات التي إستشعر فيها انفصالاً عن ذاته المحاربة، كانت تتوضح شخصيته الأخرى، شخصية الشاعر الذي يبحث عن مغزى الترحال في عوالم تمكّنه من ترميم ما أعطبته الحرب.

يوسف بزي

هل كنت مستعدا لهذا الرحيل ..ايها الشاعر؟!

فرج الحطاب*

لم يكن صديقي...
ولم تكن بيننا مراسلات كثيرة، لكنه كان شاعرا مهما في زمن مستغرق بالنفاذ. تركنا وحدنا مع الموت يوم خرج من بغداد بلا وداع، باحثا عن حياة لا تذكره باليتم. تأبط قصائده عابرا وحل الحروب نحو اليابسة المسالمة. هكذا خرج كمال سبتي من العراق، والان استقبل نبأ خروجه الجديد ولكن من الحياة هذه المرة الى حياة اخرى ابدية.

كعادتهم دائما
اتوا مبكرين
ورحلوا مبكرين ،
شعراء يهاجمون الموت
بحثا عن الحياة،
عن نقطة
ينسكب منها الضوء
ماذا سنفعل بالقصائد اذن
نحن الذين سنرحل
بعد حين..
رحيل
بلا اخر
سياتي ...

لم يشيخوا بما يكفي كي تموت خلاياهم، لكن القلب استنزف حياته امعانا بالقادم. هل كان كمال سبتي قريبا من الموت الى هذا الحد. وهل كان من قبله رعد عبد القادر او عقيل علي مثلا...لماذا يرحل الشاعر مبكرا عن الحياة وهو بحاجة لاكتشافها؟.

اشعر بالرعب، ساخشى الان على من تبقى من الشعراء والاصدقاء، اعني الذين نعيش هذه الحياة، نشترك معا في المدار نفسه وبجاذبية مختلفة.

هل كان كمال سبتي مستعدا للرحيل، او الموت، او الغياب؟ هل فكر بالموت حين هجم على الموت، او حين الموت هجم عليه؟

هكذا اذن رحيل بلا رحيل آخر سياتي. ماذا سنفعل بالقصائد؟ نحن الذين سنرحل مثلك بعد حين.

لن اعتب على الموت الذي سينتهي به المطاف حتما الى عدم، ولكن كيف سنفكر بالموت والحياة معا في هذه اللحظة. كانت الحياة ضيقة وكنت تجتهد باتساعها اوبالبحث عن نقطة ينسكب منها الضوء.

نحن ايضا نبحث عن الضوء
بينما الموت بابهة عالية
يسخر منا بامعان...

بالامس تحدثت مع امراة على مشارف السبعين من عمرها ، نعمل معا في مكان واحد، سالتها عن سبب تغيير اوقات عملها مؤخرا، قالت انها تخطط لأن تكون هذه السنة اخر سنة عمل لها وانها تريد ان تحصل على راتب تقاعدي جيد لانها تريد ان تبدأ حياة جديدة.

الكل منشغل بالبحث عن حياة جديدة كذلك يجلس الشاعر وحيدا يراقب قصائده وهي تفتش عن المعنى، بينما يذبل هو ويهوي دون ان يشعر به احد.

لماذا سرقت القصائد عمرك ايها الشاعر، وانت تبحث عن المعنى؟ لماذا كان الرحيل خيارا وحيدا دائما عن حياة ينهبها الالم؟ هل كنت مستعدا لهذا الرحيل؟ تعلمت الان كيف استعد لهذا الرحيل ، ساودع الشعراء والاصدقاء سانجز كل شيء مؤجل استعدادا لرحيل مشابه ايضا.

*شاعر عراقي
مقيم في الولايات المتحدة الامريكية

سبعة أيام باتجاه المدى...

نحط فتحط معنا المحبة للوطن

رزاق الزيدي

خمسون دقيقة الرجاء ربط الأحزمة..
الشاعر كاظم الحجاج يجلس بهدوئه المعهود المكتنز بالشعر رابطا حزام الأمان والطائرة تبدأ طيرانها..
كنا ننظر الى بغداد من الأعلى .. ينبعث صوت جميل بغداد ياقلعة الأسود وثمة من يتلاعب بأعصاب ممن لم يسافروا بالطائرات سابقا في الساعة السابعة والنصف تحط الطائرة في مطار اربيل الأنيق.

من مسافات الأمل... تنبعث موسيقى

في الطريق الى مطار بغداد الدولي ثمة هواجس خوف وحذر ، كنا ندردش مع السائق الموثوق به والذي جاءنا بناء على وصية احد الأصدقاء في بغداد بعد إن اتصلنا به وطلبنا منه أن يرسل لنا سيارة .. بين شبكة الأثير وعراقنا أصوات تتقاطع وهي تقطع المسافات الأثيرية فوق بغداد قلب العراق المتسامي على الجراح والخراب والنكبات وغدر الأخوة والأعداء .

تتداخل الأصوات في صالة المطار الأنيقة وجوه نعرفها وجلسنا مع اصحابها وثانية كنا نقرا لها كثيرا على صفحات الصحف والمجلات والكتب وثالثة كنا نراها ونتابعها من على شاشات الفضائيات .

الصالة الأنيقة تغص بالجميع أدباء وفنانين وسياسيين وقانونيين وأكاديميين وموسيقيين وفوتوغرافيين.

قبل دقائق أقلعت الطائرة المتوجهة الى عمان لذا صارت الصالة مكاناً لنا نحن المدعوين الى أسبوع المدى .

همس الذي يجلس بجانبي في مطعم المطار: اعتقد ان حسين العادلي يبالغ في أناقته! رد احدهم (ان الله جميل يحب الجمال) ومن الباب الموازي تدفق صوت عريان السيد خلف (ذوله احنه) استقبله عمال المطعم بفرح يعرضون عليه خدماتهم تقديرا له صاح احد الحاضرين وإنا شاعر أيضا واقسم بأني صديقه فلا تبخسوا حقوق الآخرين .. ضحكنا بمحبة .

الساعة الآن هي السادسة والنصف من الحادي والعشرين من نيسان .. المضيفة الشقراء تعلن عن بداية الرحلة في طائرة البوينغ..

انتم في ضيافة الخطوط الجوية العراقية .. سنطير على ارتفاع ثمانية عشر ألف قدم ودرجة الحرارة هي خمس وعشرون مئوي.. مدة الرحلة خمسون دقيقة الرجاء ربط الأحزمة..

الشاعر كاظم الحجاج يجلس بهدوئه المعهود المكتنز بالشعر رابطا حزام الأمان والطائرة تبدأ طيرانها..

كنا ننظر الى بغداد من الأعلى .. ينبعث صوت جميل بغداد ياقلعة الأسود وثمة من يتلاعب بأعصاب ممن لم يسافروا بالطائرات سابقا في الساعة السابعة والنصف تحط الطائرة في مطار اربيل الأنيق.

يا حزن السهارى..
قبل ساعة من هذه الأصوات كنا قد غادرنا يوم الثاني والعشرين من نيسان باتجاه مدى الاتى من أيامنا الاربيلية التي تقودها المدى بأسبوعها الطافح بالشعر والغناء والفن والالق.
يصمت الليل الآن وقاعة ميديا مع توقف آخر دبكة كردستانية...تنسدل ستارة يودعنا المكان المفعم بإخوة عراقية خالصة منبها إننا نطفئ ألان آخر لحظة من يوم الثالث والعشرين من نيسان

عين كاوه..عين بوسع المدى

مرة أخرى... يشتد القصف... وتنتشر شظايا.. مالحة تملا عين كاوة... العين التى كنا ننظر من خلالها للوطن بحب المقاهي في حظر التجوال الذي فرضه مهند هادي على رائد محسن وسمر قحطان..
ويندفع صوت ... ياطيور الطايرة.. مرى بهلى..
لاانوثة بعد الآن .. يندفع صوت فريدة نقاش..
وينطلق صوت كريم منصور.. بس تعالوا..
فيكون كل شئ غير صالح للعرض من خلال شاشة عدي رشيد المبدع القادم...
الأمهات على السواتر..
ينتظرن إجازة الأبناء.. من ياتى
ومن يؤتى به...
يقودنا سامي نسيم بموسيقاه وريثا أصيلا لمنير بشير ونايل جعفر حسن... يادجلة الخير يام البساتين..
فيعلن المذيع بان غدا لناظره ختام..
غدا نلملم أحلامنا
كأنها سرب العصافير التي
اصطفت على بيادر من الكروم
كأنها جدائل تبعثرت
الفريد سمعان من الخاتمين لأيامنا ...
ياخى الذي حملته النوارس إليك
نلملم أرواحنا وحقائبنا وحدائقنا باتجاه العودة
نردد عبارة في البيان الختامي (ليعلم السياسي جيدا بأنه لن يستطيع حمل الراية بدون المثقف)..
نلملم شكرنا للمدى التي جعلتنا صاعدين باتجاه المدى غدا سنعود منحدرين باتجاه مدينتنا وقرانا من الجنوب حالمين بتحقيق أحلامنا ببناء بيت للشعر نحتمي فيه
سنعود حالمين بإنشاء مجلس أعلى للثقافة نجلس فيه جميعا بكل خصوصياتنا هاتفين للوطن ...